الكوفية والعقال

الاستاذ المرحوم الاب
انسطاس ماري الكرملي

جاء في معلمة الاسلام ما هذا نقله الى لغتنا في تعريف الكوفية والعقال : « الكوفية وفي لغة سورية الكفية ، على ما في معجم الاب كوش اليسوعي ص 577 ـ وبركهاردت في كتابه تعليقات على البدو ص 27 ، و ج . فسكه في كتابه رحلة في الشرق ص 185) كلمة عربية ، مقتبسة من اللغات اللاتينية الحديثة (1) (فهي في الايطالية Cuffia والاسبانية Cofia والبرتوغالية Coifa والفرنسية Coiffe او Coëffe) شستقة من حرير يتخذها بدو صحراء الشام عمرة لهم ، اولئكم البدو الممتدون الى اباطح مكة ، وتثبت حول الراس بخيل او بريم من الوبر مصبوغ بأسود ، ويوثق من فسحة الى فسحة بضبات زاهية الالوان ويسمى هذا الحبل عقالا (بالفتح ، وباللغة الفصحى عقالا بالكسر) وهذه الشستقة كسفة مربعة ، صفراء اللون او صفراؤه او خضراؤه ، توضع على الراس ، بحيث تقع زاوية منها الى الوراء ، في حين ان الزاويتين الاخريين تقعان على مقدم الكتفين . وهذا يستلزم ان تطوى الكسفة طيتين قبل ان توضع على الراس ، بحيث يتقوم منهما زاوية ، وهذا ما يسمى طرفا حادا في صناعة القصارين ويستطيع لابسها بعد ذلك ان يجمع الطرفين الواقعين على الكتفين على وجهه ليدفع عنه اشعة الشمس او حر السموم او المطر او ليخفي ملامحه ، ان لم يحب ان يبين نفسه . وتتدلى خيوط اللمحة كل التدلي حتى تتجاوز طرف الكسفة المنسوجة ، وتفتل فتلا كالمربر فتكون له تطاريف طويلة . وكانت هذه العمرة معروفة عند السلاطين المماليك في مصر .

الكوفية والعقال (وهما :) الصماد والعصابة

1 ـ تصدير

بين الادباء المعاصرين ، والمؤرخين ، والباحثين ، مطارحات ومطالعات ، ومجادلات لا تحصى ، تتعلق بالكوفية والعقال ، ووجودهما عند العرب في سابق العهد . وقد ذهب اغلب هؤلاء الافاضل الى ان وجودهما لا يتجاوز ثلاثة قرون في ابعد تقدير ، والفى بعضهم هذه المدة طويلة ، فقدرها بمائتي سنة في الاكثر . وجرى حديث طويل بيني وبين احمد زكي باشا رحمه الله ، في حزيران (يونيو) سنة 1971 م ، فكان يؤكد ان ثلثمائة سنة هي ابعد مدة يمكن ان تقدر لوجودهما عند الاعراب .

ثم استفاض حديث آخر بيني وبين الشيخ احمد الاسكندري رحمه الله ، وطائفة من اصفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية كعلي بك الجارم واحمد بك العوامري وغيرهما ـ ومحصل كلامهم لا يخرج عن هذه الفكرة . ومن العبث ذكر تفاصيل هذا الحديث الذي جرى في سنة 1937 .

واما رايي فقد كان دائما مخالفا لآراء هؤلاء المحققين والادباء المؤرخين ، اذ كنت اقول بان الكوفية والعقال ، هما من ملابس الراس عند العرب ، وكانا معروفين عندهم منذ اقدم الازمنة ، اي قبل الاسلام وبعده ، الى عهدنا هذا . وليس الاسم هو المهم في هذا الموضوع ، انما المهم الشيء نفسه ووجوده بين

(1) كذا . وهذا وهم ظاهر ، كما ستراه في موطنه عند كلامنا على وجود الكوفية عند العرب في قديم الزمن

جمهور الناس ، اذ الاسماء تختلف باختلاف الأزمنة والامكنة والقبائل ، كما هو الامر في أسامي اشياء كثيرة كالاسد ، والجمل ، والناقة ، والخمر ، والسيف ، الى ما لا يعد ولا يحد من الأعيان والجواهر . ومثل هذا الامر يجري في جميع لغات الدنيا .

2 ـ تعريف الكوفية والعقال

(الكوفية قبل الاسلام)

« كان العقال معروفا في فلسطين بنحو تسعمائة سنة قبل المسيح » ـ شهادة التوراة ـ لا شبهة في ان العقال كان معروفا في فلسطين قبل المسيح بنحو تسعمائة سنة . والشاهد على ذلك ما ورد في سفر الملوك الثالث في الفصل 20 والآية 27 وهذا نص القصة التي تروي سبب وضع العقل على الرؤوس كما جاء في نسخة التوراة المطبوعة في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية :

« فهرب الاراميون ، واتبعهم اسرائيل ، فافلت بنهدد ، ملك ارام ، على فرس مع الفرسان . وخرج ملك اسرائيل ، فضرب الخيل والمراكب ، وضرب ارام ضربة عظيمة . فتقدم النبي الى ملك اسرائيل ، وقال له : امض ، وتشدد ، وتأمل ، وانظر ما تصنع ، فانه عند مدار السنة ، يصعد عليك ملك ارام . وقال لملك ارام عبيده : ان آلهتهم ، آلهة الجبال ، ولذلك قووا علينا ، ولكن اذا حاربناهم في السهل ، فانا نقوي عليهم وانت فافعل هذا الامر: اعزل الملوك كلا من مكانه، واجعل في امكنتهم قوادا ، واحص لك جيشا كالجيش الذي سقط لك ، وخيلا كالخيل ، ومراكب كالمراكب ، فنقاتلهم في السهل ، وتقوى عليهم ، فسمع منهم وفعل كذلك . فلما كان مدار السنة ، احصى بنهدد الارامين، وصعد الى افيق لمحاربة اسرائيل واحصي بنو اسرائيل ، وتزودوا ، وساروا للقائهم ، ونزل بنو اسرائيل مقابلهم كانهم قطيعان صغيران من المعز ، والاراميون قد ملأوا الارض . فتقدم رجل الله وكلم ملك اسرائيل . وقال : هكذا قال الرب الاجل ان الاراميين قالوا : ان الرب هو اله الجبال،لا اله الاودية، فاني دافع الى يدك كل هذا الجمهور العظيم ، لتعلموا اني انا الرب . فنزل هؤلاء تجاه هؤلاء سبعة ايام . ولما كان اليوم السابع ، التحمت الحرب فقتل بنو اسرائيل من الاراميين مائة الف راجل في يوم واحد . وهرب الباقون الى افيق الى المدينة ، فسقط السور على السبعة والعشرين الف رجل الذين بقوا ، وهرب بنهدد ، ودخل المدينة الى مخدع ضمن مخدع . فقال له عبيده : انا سمعنا ان ملوك آل اسرائيل هم ملوك رحمة . فلنشدد الآن مسوحا على متوننا ونجعل « حبالا » على رؤوسنا ونخرج الى ملك اسرائيل لعله يستبقي نفسك . فشدوا مسوحا على متونهم ، « وحبالا » على رؤوسهم . وجاؤوا ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك بنهدد يقول : اتوسل ان تستبقي نفسي . فقال أو حي هو بعد ، انما هو اخي ، فاستبشر القوم وبادروا ، فتلقوا الكلمة من فيه ، وقالوا : اخوك بنهدد . فقال : هلم فخذوه . فخرج اليه بنهدد ، فاصعده على المركبة . فقال له : المدن التي اخذها ابي من ابيك اردها عليك ، وتجعل لك اسواقا في دمشق ، كما فعل ابي في السامرة . فقال : وانا اطلقك بهذا العهد ، وقطع له عهدا واطلقه » آه المطلوب من ايراده .

فهذا نص صريح ، ذكر فيه لاول مرة في التاريخ استعمال (الحبال) أو العقل مشدودة على الرؤوس . وكان ذلك في عهد بنهدد ، الذي ملك على الارميين من سنة 917 الى 885 قبل المسيح .

ولا جرم ان المراد (بالحبال) هنا ، ما سماها العرب بعد ذلك (بالعقل) (جمع عقال) او باسماء اخرى ، كما ستقف عليها .

زد على ذلك ان الفرنسيين اذا ارادوا اليوم الدلالة على (العقال) بلسانهم قالوا Tresse اي بريم او جديل او ضفر او ضفيرة او Corde اي حبل ، او مرير او فتيل .

ومعلوم ايضا ، ان الارميين او الآراميين كانوا في ايام بنهدد ، قوما رحلا كأهل بادية العرب ، فكانت عادتهم ، واخلاقهم ، وآدابهم ، كعادات الاعراب ، واخلاقهم ، وآدابهم وكذا قل على اكلهم ، وشربهم ، ولبسهم ، وحلهم ، وترحالهم ، واقامتهم ، فهذا كله كان متشابها بين القومين ، لان الطبيعة كانت تدفعهم الى اتخاذ تلك الامور جميعها ، بصورة واحدة .

شهادة التصاوير القديمة

وقد ظهر في الآثار التي وجدت في ديارنا العراقية تصاوير وتماثيل منها بالعقال وحده ومنها بالصماد او الكوفية وحدها ، ومنها بالكوفية المثبتة على الراس بالعقال . وعلى من يشك في صحة كلامنا ، ان يزور

دار هذه التحف او ما يشابهها فى دور التحف الغربية كباريس ، ولندن وبرلين وغيرها ، او ان يراجع بعض الكتب المصورة التاريخية الجامعة لمثال هذه النفائس الاثرية التي تبحث عن العراق ، او الشام ، او فلسطين، ففيها الغنية عما يود ان يشاهده فى البلاد نفسها ، اذ يرى بعيني رأسه تماثيل من عهد حمرب ، اي منذ زهاء خمسة آلاف سنة وعلى رؤوسها العقل والكوفيات او العصائب والصمد ، او احد الاثنين دون الآخر .

وكنت كتبت الى حضرة الاستاذ الجليل والامير العلامة الخطير والبحاثة الشهير شكيب ارسلان ، اسأله عما يعرف من امر الكوفية والعقال وعن وقوفه فى تصانيف المؤرخين والادباء عليهما فكتب الي من صوفر (لبنان) فى 29 تشرين الاول (اكتوبر) من سنة 1937 ما هذا نصه :

« ... ولقد كنت كتبت الي سائلا عما اذا كان عندي من معلومات عن لبس العقال ، ومتى بدا ، واين بدا . وكنت انقب عن هذه المسأله الجليلة ، واسأل اهل الذكر ، وما حظيت عنها بطائل . غير انه اخبرني اناس زاروا (تدمر) ، فوجدوا فيها نقوشا وتماثيل من جملتها رجال على رؤوسهم الكوفيات والعقل ، فهذه التماثيل هي من قبل الاسلام بدون شك ، ومنها نعلم ان العقال فى جزيرة العرب وما جاورها زي قديم ربما يرجع الى آلاف من السنين ... » انتهى .

ونحن نؤيد هذه الاقوال بما يرى من الصور فى التاريخ القديم للشرق الى الحروب المازية للعلامة فرنسوى لنورمان . ففي المجلد 1 : 307 صورة رجلين تورانيين من اهل ماذية وقد لف الواحد راسه بعمامة ، واثبتها عليه بعصابة عريضة . اما الثاني فقد لبس كوفية ، واثبتها بعصابة ايضا لا بعقال (1) وقال المؤلف عليهما ، انهما راسا اسيرين من حروب ماذية وهما مصوران محفورين على قصر سنحاريب فى قوينجوق ، وكان من الاسرى الذين يشتغلون اشغالا شاقة فى بنايات الملك . ومن المعلوم ان الحروب الماذية وقعت فى المائة الخامسة قبل الميلاد .

وفى ص 153 من المجلد الرابع ، صورة رجال من الاشوريين يقدمون الى ملك اشور جزية خيلا ، ورؤوس أولئك الرجال مشدودة بعصابة وهي من النقوش المحفورة التي كانت فى بلاط الملك سرجون.

وفى ص 305 من ذلك المجلد عينه صورة مقسومة قسمين : فى القسم الاعلى منها رؤوس رجال مغطاة بقلانس مستطيلة او بخوذ مرتفعة لانهم من الجند . ورؤوس رجال القسم الاسفل منها مغطاة بكوفيات وقد اثبتت بعصائب لانهم من الرعية او من السوقة وقد كتب تحتها : « اشوريون يحملون الاسلاب وهم يسوقون امامهم الاسرى والصورة من كوينجوق (بأطراف الموصل) وهى اليوم فى دار التحف فى لندن .

وفى ص 323 من التاريخ المذكور صورة تمثل حربا فى بلاد جبلية كثيرة الغابات وهي من بلدة نمرود (فى انحاء الموصل) والمصورون فيها طائفتان : طائفة الجند السوقة فملبوس راس الجندي الخوذة وملبوس راس السوقة العصابة وحدها .

وفى ص 423 منه صورة مغنين ومن الضاربين على آلات اللهو وهم من العبيد الاسرى . ورؤوس جميعهم معصوبة عصبا .

وفى ص 78 من المجلد 6 صورتان تمثل احداهما صورة جندي بيده حمل وعلى جنبه الايمن سكين كبير. وتقابله صورة امراة معممة بالكوفية . وقد وجدت هاتان الصورتان فى اصطخر من بلاد فارس . منهما صورتا ماذيين من اهل فارس .

وفى ص 150 من المجلد المذكور ترى صورة رجلين يضعان احمالا على بعير وعلى راس احدهما كوفية مربوطة بعصابة ، وعلى راس الثاني قلنسوة بطرفين ينحدران على الاذنين .

وفى ص 155 منه صورة تمثل مهاجرين من اهل آسيا ، يهبطون وادي النيل وقد اصيبت هذه الصورة منقوشة على قبر مصري فى بني حسن .

وفى ص 432 منه صورة نصب حميري يمثل عربا وقد لفوا رؤوسهم بالكوفيات ، وامروها تحت احناكهم وهذا ما يسمى عند السلف بالتحنك .

وان كان بين يديك (التاريخ القديم لشعوب الشرق المؤتم تأليف ج. ماسبرو (2) فافتح مجلد

(1) François Lenormant : Hist. Anc. de l'Orient - 9e Edition - Paris - A. Lévy, 1881

(2 G. Maspero : Hist. Anc. des Peuples de l'Orient Classique - Les Empires - Paris - Librairie Hachette et Cie, 1899

السلطنات 3 : 87 تجد صورة قسم من جزية اسرائيل للملك سلمان اسر (أو كما يسميه العرب سلمان الأعسر) يحملها رجال قد لفوا رؤوسهم بالكوفيات وقد عقدوا اطرافها وراء رؤوسهم تلك ، ولم يشدوا عليها عقلا . وفي المجلد 2 : 151 تجد صورة رجال سوريين وقد لفوا على رؤوسهم عقلا عن صورة نقلت عن قبر كان صاحبه يطوي بساط ايامه في نحو اواخر الدولة الثامنة عشر من دول مصر المنقرضة (أي في نحو الفي سنة قبل الميلاد) .

فهذه بعض الصور التي ظفرنا بها في بعض الكتب التي ترى في خزائننا ، وهناك مصنفات لا تحصى مزينة بأحسن الصور وفيها ما يثبت كل ما نقلناه او اثبتناه وكله سابق للاسلام .

3 ـ الكوفية بعد الاسلام

اما بعد الاسلام فلا جرم ان (الكوفية) كانت موجودة بغير هذا الاسم ، وكذلك (العقال) فان هذا الاسم محدث وقد اخذ من المشابهة التي ترى بينه وبين عقال البعير .

(أ) الكوفية في عهد العباسيين

واقدم نص عثرنا عليه يذكر (الكوفية) هو ما جاء في كتاب « رسوم دار الخلافة (3) » لأبي الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء (المتوفى سنة 448 للهجرة في ص 131 من النسخة الخطية الاصيلة) وهذا هو نصها :

« لما خلع الطائع ، رحمة الله عليه ، على عضد الدولة ولقبه تاج الملة ، حل اليه في اليوم الثالث قلنسوة وشي مذهب ، مجالسية ، وفرجية وشي ، وكوفية مثقلة ... » وذلك في نحو سنة 355 هـ (965 م) .

اذن قد مضى على هذه التسمية نحو من الف سنة ومن البديهي ان الكلمة لم توضع في تلك السنة ، بل لا بد من انه مضى عليها ما يقارب خمسين سنة حتى تشيع بين الناس وربما اكثر من ذلك . وجاء ذكر الكوفية ايضا في عيون الانباء (2 : 177) قال : « وهو شاب (والكلام على الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وكان عائشا في سنة 585 للهجرة = 1189 م) على راسه كوفية وتخفيفة صغيرة » اهـ

فهذان نصان اسلاميان قديمان يذكران الكوفية ذكرا واضحا لا شبهة فيه . ومعلوم ان الكوفية تحتاج الى عقال او نحوه لتثبت على الراس ولذلك كان لا بد من العقال كلما ذكرت الكوفية وان لم يذكر بوضوح العبارة .

(اسم الكوفية قبل الاسلام : الصماد ، واسم العقال : العصابة) ـ ولهما مرادفات ـ

قال في العين : ـ « صمد راسه تصميدا : اذا لف راسه بخرقة ، او ثوب ، او منديل ، ما خلا العمامة وهي الصماد » ، ويقال في كل من الفعل والاسم بالضاد ايضا اي ضمد تضميدا والضماد والصماد في اللغة الارمية (صمادا) والمعنى واحد . وتلفظ باسكان الصاد ، وبألف في الآخر على ما هو شائع في اللغة المذكورة . واما ان العقال كان معروفا عند قدماء العرب بالعصابة فما لا شك فيه ، لاسباب منها : ان صاحب التاج يقول في مادة (ع ص ب) :

«والعصابة، بالكسر ايضا : ما عصب به كالعصاب، بالكسر ايضا ، قال ابن منظور وعصبه تعصيبا : شده . واسم ما شد به العصابة ، وفي الاساس : ويقال شد راسه بعصابة ، وغيره : بعصاب . » انتهى .

ولما كان بعضهم يشد راسه ، او يغطيه بالتاج او العمامة ، توسعوا في معناه الاول الموضوع له ، وانتقلوا به الى معنى التاج والعمامة . ومثل هذا التوسع يضر بمعرفة المعنى الاول ويجعل الكلم تقع على طائفة من المعاني ، فيحار القارىء في معرفة المعنى الحقيقي في العبارة الوارد فيها ، حتى انه ليتعذر على السامع معرفة الشيء المدلول عليه بذلك الحرف ، أهو المدلول ، او المتوسع فيه ، او المدلول الثالث او الرابع اذ المعاني قد تتفرع فروعا جمة ، فالغربيون مثلا يميزون بين العصابة وبين التاج وبين العمامة ، فلكل من هذه الالفاظ معنى غير معنى أخيه . لكن هكذا جرى الناطقون بالضاد انهم يتوسعون في معاني جميع

---

(3) وهذا الكتاب يعده للطبع ولدي العزيز بالروح والاستاذ النابه السيد ميخائيل عواد ، وقد اغناه بتعليقات من انفس ما جاء مثلها في هذا الموضوع وزينه بفهارس وافيات تجاوز العشرة . وسيكون بين أيدي القراء عن قريب .

حروفهم ، او يكاد . فقد قال الشارح : « والعصابة ايضا : التاج والعمامة . والعمائم يقال لها العصائب . قال الفرزدق :

وركب كان الريح تطلب منهم
لها سلبا من جذبها بالعصائب

اي تنقض على عمائمهم من شدتها ، فكأنها تسلبهم اياها . ونقل شيخنا عن عناية الشهاب في البقرة : ان العصابة ما يستر به الراس ، ويدار عليه قليلا ، فان زاد فعمامة . ففرق بين العصابة والعمامة . وظاهر (كلام) المصنف : انها تطلق على ما ذكره وعلى العمامة ايضا ، كانه مشترك وهو الذي صرح به في النهاية . انتهى كلام صاحب التاج .

قلنا : والاحسن الرجوع الى المعنى الاول ، وهو ايضا معنى اللفظة الواردة في بيت الفرزدق .

ومن اسماء الكوفية ايضا (العمامة) فقد جاء في تاج العروس في مادة (ل ث م) : « قال ابو زيد : تميم تقول : تلثمت ، وغيرهم : تلفمت . وقيل : اللثام: رد المراة قناعها على انفها ، ورد الرجل عمامته على انفه ، فلو لم ترد العمامة بمعنى الكوفية لما ساغ له هذا الكلام .

ومن الادلة المبرهنة على ان العصابة هي العقال اشتقاق الكلمة نفسها فانها تدل دلالة الكلمة الارمية نفسها وتلفظ عصوتا وبعضهم عصبتا بمعنى العصابة او العقال . والمادة اللغوية واحدة والاشتقاق واحد .

وزد على هذين الدليلين قدم صورة العقال على التماثيل التي ذكرناها ، فان العقال مصور فيها تصويرا جليا لا شبهة فيه ولا شك ملفوفا لفا محكما بعد ان اتقن برمه .

وهناك دليل رابع وهو ان عرب شرقي الاردن يسمون العقال الى يومنا هذا (العصابة) وهو ابين دليل على اثبات ما نحن في صدده فقد كتب الي الاستاذ روكس العزيزي في اول كانون الاول (ديسمبر) من سنة 1940 ما هذا نصه بحروفه : « ويلبسون (اي العرب) على رؤوسهم المرير (وزان كبير) وهو لباس قديم عرفه سكان البادية ، ويسميه اهل السلط وعجلون وفلسطين (العقال) . ويسمي البدو العقال (عصابة) ايضا » انتهى .

ودليلنا الخامس : ان وجود العصابة (مع اختلاف اسمائها) في جميع البلاد التي فيها بادية على رؤوس من يشدها عليها دليل بين على ان هذا الامر لم يحدث في هذه الايام الاخيرة ، بل هو قديم احدثه هواء البلاد وتقلبه تقلبات اجبرتهم على ان تكون تلك العمرة مما يدفع عن اصحابها شدة الحر في الصيف ، وضرر البرد في الشتاء ويمنع الغبار من التسلل في منافذ الراس كالعين والاذن والانف والفم ويدفع المطر عن الوجه .

فاذا اجتمعت ادلة اللغة ، والتاريخ والنقل عن السلف ، والعادة الجارية في جميع الديار التي فيها بدو ، فكيف لا تكون الحقيقة على ما تسير في وجهها في هذا العصر ؟

ويزاد على كل ما تقدم ان من اسماء العقال او العصابة مرادفاته في بعض الربوع الناطقة بالضاد . من ذلك (المرير) في لسان اهل شرقي الاردن والمرير في اللغة الفصحى ما لطف من الحبال وطال واشتد فتله وهي المرائر . قاله ابن السكيت . ومثله المريرة بهاء في الآخر . ويسمي العمانيون ـ وديارهم على خليج فارس ـ الكوفية : (المصر) والعقال : (الخزام) ويتخذونه دقيقا كالمرير . وذكر لنا احد الحضارمة في سنة 1897 واسمه محمد بن الرفاع الجندي ان اهل الربع الخالي ـ وهم بادية لم يختلطوا بالاجانب ـ يسمون العقال سبا ، بكسر السين وتشديد الباء، وربما سموا به الكوفية ايضا. وفي تاج العروس: « السب بالكسر الحبل ... والخمار العمامة ... » انتهى . فلقد راينا من اسمائه في التوراة (الحبل) ؛ وعند اهل الحجاز والعراق وكثير من بلاد العرب (العقال) وعند ابناء شرقي الاردن (المرير) ، وعند بدو شرقي الاردن والسلط وعجلون وفلسطين (العصابة) ، و (السب) عند اهل الربع الخالي ، فلم تبق شبهة في ان هذه العصابة وجدت منذ اقدم الازمنة في ديار الشرق الادنى عند العرب الحقيقيين .

(ب) الكوفية في صدر الاسلام

جاء في اللسان في مادة (ب ح ر) : « واما حديث عبد الله بن ابي ، فرواه الازهري بسنده عن عروة : ان اسامة بن زيد اخبره : ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ركب حمارا على اكاف ، وتحته قطيفة ، فركبه واردف اسامة ، وهو يعود سعد بن عبادة . وذلك قبل وقعة بدر .

فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمر عبد الله بن ابي انفه ، ثم قال : لا تغبروا . ثم نزل النبي

صلى الله عليه وسلم ، فوقف ودعاهم الى الله وقرأ القرآن ، فقال له عبد الله : ايها المرء ان كان ما تقول حقا ، فلا تؤذنا في مجلسنا ، وارجع الى رحلك ، فمن جاءك منا فقص عليه ثم ركب دابته حتى دخل على سعد ابن عبادة ، فقال له : اي سعد ، الم تسمع ما قال ابو حباب ؟ ـ قال : كذا ـ فقال سعد : اعف واصفح ، فو الله ، لقد اعطاك الله الذي اعطاك ، ولقد اصلح اهل هذه البحيرة (اي يثرب) على ان يتوجوه ، يعني يملكوه فيعصبوه بعصابة . فلما رد الله ذلك بالحق الذي اعطاك ، شرق لذلك فذلك فعل به ما رايت فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم » انتهى .

فقول الراوي « خمر عبد الله بن ابي انفه » دليل على انه كان على راسه الصماد ، حتى استطاع ان يخمر انفه بطرفه ، على مألوف ما يفعل كل من يلبس الكوفية فانه يخمر انفه اذا قابله غبار او عجاج . وفي قوله : « يملكوه فيعصبوه بالعصابة » دليل على ان العصابة او العقال كان من ملابس كبار العرب ، ثم امتد استعماله الى جميع اهل البادية لحاجتهم اليه .

ويزاد على ذلك : ان الرومان اتصلوا بالعرب من جهتين : من جهة الحجاز ، فكان لهم هناك كورة عرفت بعربة الحجرة Arabia Petraea ومن جهة العراق في ايام لوقلس وبنيايوس اي قبل الميلاد بنحو سبعين سنة . فكان اتصالهم هذا بابناء اسماعيل دافعا الى ان يأخذوا منهم بعض امور خاصة بهم فكان من جملتها الكوفية وسموها في لغتهم Cofea او Cuphia وسماها الايطاليون Cuffia او Scuffia وقد وردت اللفظة اللاتينية في كلام الاسقف فرتناتس Fortunatus المتوفى سنة 600 للمسيح اي قبيل الهجرة باثنتين وعشرين سنة . ووردت بعد ذلك مبنى ومعنى في كلام الكويين Alcuin الانكليزي ، اللاهوتي الشهير ، والشاعر الكبير العلامة المنقطع النظير ، المتوفى سنة 804 للميلاد . وكان احسن من يتقن صفها في عهد العباسيين اهل الكوفة ، فاجتمع في اللفظة امران : معنى التكوف وهو استدارتها على الراس . وصنعها في الكوفة ، فشاعت حينئذ هذه الكلمة ومثلث كل لفظة سواها . ومن الغريب اننا قرانا في كتاب الملابس لدوزي هذه العبارة التي ننقلها الى لغتنا « ولا اظن ان احدا يذهب الى ان للكوفية اصلا عربيا . اما انا فاذهب الى ان الكوفية ليست الا Cuffia (كفية) الايطالية و Cofia (كوفية) الاسبانية ، و Coiffe (كواف) الفرنسية ، و Coifa (كوافة) البرتغالية . واذهب ايضا الى ان الشرقيين استعاروا هذه الكلمة من الايطالية وكانوا في العصور الوسطى يتاجرون في موانئ مصر وسورية وينقلون الصليبيين » انتهى .

قلنا : ويرد هذا الراي اولا : تصاوير الاقدمين على الحجارة المبثوثة في ديار الشرق الى يومنا هذا وذلك قبل وجود لغة الايطاليين على الارض . وثانيا ان الكلمة الايطالية مأخوذة من اللاتينية المولدة Cofea او Cuphia وهذه لا تتصل بمادة اصيلة فيها ، انما هي لقيطة فيها ، فهي من اللغة العربية ، وقد اقتبسها الرومان منها حين كانوا متصلين بالعرب من جهة الحجاز ومن انحاء الفرات ، وكانت هذه العمرة شائعة يومئذ في جميع الديار العربية . ولهذه المادة في لغتنا معنى يؤيد اشتقاقها ، وهو معنى التكوف اي الاستدارة لاشتمالها على الراس والراس مستدير ولاحاطتها به كل الاحاطة ومن كل جانب . قال السيد مرتضى « والكوفية : ما يلبس في الراس ، سميت لاستدارتها » .

عقال العربيات يسمى النوفلية

جاء في تاج العروس « النوفلية : شي من صوف يكون في غلظ اقل من الساعد ، ثم يحشى ويعطف ثم تختمر عليه نساء العرب . نقله الازهري » .

فيؤخذ من هذا الشرح ان النوفلية شيء يشبه عقال الرجال الا انه متين ومحشو صوفا لكي لا يثقل الراس . وقد كنت كتبت في سنة 1938 رسالة من القاهرة الى الاستاذ الجليل عبد الله مخلص في القدس ليسأل الشيخ كاظم الدجيلي قنصل العراق هناك وهو من الواقفين اتم الوقوف على آداب واخلاق الاعراب واصل البادية عما يعرف عن العقال الذي تتخذه بدويات العراق ، فاجابني الاستاذ المخلص بما ياتي :

« . . . وقد زرته وحدثته بما اردت وسالته عن العقال الذي تلبسه نساء البدو في العراق ، فذكر لي ما ادونه لكم باختصار :

« نساء شمر ، وعنزة ، والضفير ، وربما بعض نساء زوبع يشددن على رؤوسهن العقال وطوله نحو ثلاثة امتار ، بحيث يلف على الراس ثلاث او اربع لفات، وفي طرفيه عثكولان يتدليان من الخلف ، وفي وسط الراس عقدة ، او ما يسونه ضبة :

« وهو كما ترى من نوع العقال الذي يستعمله الرجال ، الا ان لفات او طيات العقال الذي تستعمله

نساء العراق اكبر. وعلى ذكر العقال،اقول لكم ان العرب في فلسطين مسلميهم ونصرانيهم قد لبسوا العقال ، ونبذوا الطربوش ، وتراني الآن اضع على راسي كوفية بيضاء ، وعقالا اسود من المرعزي كأعرابي في البادية » انتهى .

وحضر الشيخ كاظم الدجيلي في بغداد وكنت ايضا انا فيها في نحو اواخر ايلول (سبتمبر) من سنة 1938 فقال لي بحضور جميع الادباء الذين كانوا مجتمعين في مجلسنا يومئذ ما هذا روايته :

« العربيات اللواتي يتخذن ضربا من العقال ، اي النوفلية ، هن عربيات الصالح ، وعنزه ، وشمر والضفيرة، وقد قل الآن استعمالهن له ، وبقي محصورا في نساء الشيوخ ، والوجيهات من سائر الاعربيات »اه

وكنت سألت مثل هذا السؤال الاستاذ الدكتور مصطفى جواد وهو في باريس ، فكان جوابه ما اورده بحروفه :

« ان الذي رايتموه على رؤوس البدويات نوعان : نوع من جنس العقال الذي يتخذه الرجال ، ونوع يسمى جمجة اي كمكة ، يتخذه النساء الربعيات ، اي المعيديات ، تهوينا لنقل ما يحملن على رؤوسهن من قصاع اللبن والرائب . وكلاهما مألوف معروف .

« فأما العقال ، فعند اكثر البدويات الرواحل . واما الكمكة في شيء اضطرت الحاجة اليه ، فلا يدخل في ابواب العقال ، فالعقال هو الرفيع والجمجة ثخينة » انتهى .

وسألت الاستاذ عبد الله مخلص ان يبدي لي رايه بخصوص عقال النساء فكتب الي من القدس بتاريخ 21 / 8 / 1938 ما هذا نصه :

(اما لباس الراس الذي يشبه العقال ، وهو كما وصفتم من جهة شكله ، وحشوه بمادة من المواد ، فيسمى هنا (في فلسطين) صمادة . وهو خاص بالنساء . الا ان هذا اللباس لا يدار على الراس كالعقال بل يوضع فوقه ، فيتدلى من الجانبين ، حتى يصل الى الاذنين . وله خيط يربط به من تحت الحنك يسمى (مخلة) او (زناق) ويخاط على دائر الصمادة مسلوكات فضية ، قديمة ، مجوفة ، يركب بعضها بعضا ، فتراص وتنسجم . (والصمادة) هنا غير (الصماد) الوارد في كتب اللغة . وكذلك القول على (المحنكة) و (الزناق) انتهى كلامه .

فيؤخذ من هذا كله ان العقال ، او ضربا منه ، معروف الى اليوم عند البدويات ، على حد ما كان معروفا في سابق العهد ، الا انه اخذ بالزوال شيئا بعد شيء وفي جميع بلاد الشرق الادني التي فيها بادية . وقد ذكر بركاردت ان نساء اعراب الدولة يعتممن بعمائم من حرير اسود ، طول الواحدة ذراعان مربعبسان ويسمونها (شال خاص) وتعمل في دمشق ، وكثيرا ما تزينه بخيوط من ذهب او فضة » انتهى .

اختلاف اسماء الكوفية باختلاف البلاد والازمان

مر بنا ان الكوفية لم تكن دائما مدونة بهذا الاسم فقد راينا انها سميت في سابق العهد بالصماد والضماد، ثم انتقل الى لفظ الكوفية في عهد العباسيين ، ثم اختلفت اسماؤها باختلاف المادة المتخذة منها ، او باختلاف الوانها ، وقد يختلف اصل البلد الواحد في التلفظ بالكلمة الوحدة لان الجميع لا يتفقون على النطق بالحروف على وجه واحد . وجمع الكوفية الكوافي والكوفية يلفظها العراقيون الكفية او الجفية ، لانهم يلفظون الكاف جافا معقودة مثل G H في الانكليزية Change ويكسرونها ، ويليها فاء مشدودة مكسورة ، ويعقبها ياء مشدودة مفتوحة ، وفي الآخر هاء . ويجمعونها على جفافي وزن كراسي ، وهم يريدون ايضا معنى آخر ، ولا سيما اهل المدن منهم ، فانهم يطلقونها على المنديل الذي يمخطون فيه ، اي الشستقة ، وعلى المشوش وهو ما يتمسح به في المناديل . واهل نجد يسمون اليوم الكوفية الحمراء (محرمة) وحركة الميم والراء بين الفتح والكسر ، واذا كانت بيضاء فيسمونها (غرة) بضم الغين ، او بحركة بين الكسر والفتح ، وتكون من القطن . والعراقيون من اهل البادية يسمون الكوفية (الحلالية) بتحريك الحاء واللام وكسر اللام الثانية وتشديد الياء . وهذا اذا كانت من قطن . اما اذا كانت من قز فيسمونها (قزية) ويلفظونها (جزية) بفتح الاول وتشديد الثاني المكسور يليها ياء مشددة مفتوحة. والقز ضرب من الابريسم او الحرير الا انه دون الحرير حسنا . ومن اسماء الكوفية عند اهل نجد (الدسمال) او (الدشمالة) بدال مفتوحة وبعضهم يكسرها ، وهم يخصون بذلك الكوفية الحمراء الخالية من كل نقش بارز وهي غير الشماغ او اليشماغ وغير الشال وغير الغترة وربما كان الدسمال مخططا احمر واصفر ، ويجمعونها على دساميل .

والكلمة فارسية الاصل منحوتة من (دست) اي يد . و (مال) اي يمسح او يمش والمعنى ما يمسح به

اليد ، لان العرب لا يتخذون شستقة يمخطون بها ، بل يمشون أيديهم ويمسحون وجوههم بطرف الكوفية أيا كانت .

(والشماغ) ككتاب أو (البشماغ) بعضهم يجعل القاف في مكان الغين في اللفظين المذكورين ويجمعونها على يشاميغ كلمة تركية هي في هذه اللغة ياشمق أو ياشماق . برقع خفيف تتبرقع به التركيات ، ثم اطلق على كل ستر أو لثام أو نقاب أيا كان ، لكن أهل نجد وبعض العراقيين يسمون به كوفية تتخذ من القطن وفيها نتوءات بخيوط حمر أو زرق ، ويكون اليشماغ مربعا ، فيطوى طيا مخالفا بين أطرافه ، فيصبح كالزاوية الكبيرة المستقيمة الزوايا أو الكوس فتوضع على الراس بتحكيم وسطها عليها ثم يربط عليها العقال .

اما اذا كانت الكوفية حمراء اللون متخذة من الصوف لا من القطن فيسمونها (الشال) من باب التوسع في مكاني الالفاظ . ومعلوم ان الشال في الاصل : « هذا الرواء الذي يعمل بكشمير ولاهور ويجلب به (كذا) الى البلاد يقال انه من دير الجمل ، سمي به لانه يرفع على الاكتاف . ان كانت عربية والجمع شيلان وشالات » . انتهى من التاج .

قلنا : ليس الشال من كلام العرب ، بل من لسان الفرس وهو عندهم من الثياب يتخذ من الصوف ، خشن الصنع . يلبسه فقراؤه وبه سمي الثوب الذي يصنع في كشمير ، ولاهور ، وفي تلك الارجاء ويكون من شعر المعزى او من وبر الجمال ، أو صوف الغنم .

الكوفية والعقال

اما اذا كانت الكوفية من القطن الابيض فيسميها اهل نجد (غترة) وزان غرفة ، وكان يسميها أهل العراق قبل نحو مائة سنة (الضريبة) والاسم مأخوذ من (الضريب) وهو الثلج لبياضها الخالص ، وتتكون من حرير ابيض وربما سموها (ضريبا) بلا هاء . واذا كانت تلك الكوفية من الحرير المشطب أو المسيح او المقلم فكانوا يسمونها (الساعورية) ، ولعل سبب هذه التسمية ان اغلب هذه الشطب أو الخطوط الممتدة فيها ، صفر بلون النار وهي الساعور .

هذا بعض ما وجدناه من اسماء الكوفية بحسب بعض البلدان ، ولا جرم أن هناك غير هذه الالفاظ .

اختلاف اسماء العقال باختلاف البلدان العربية

قد بينا في ما تقدم من كلامنا أن اول اسماء العقال : (الحبل) على ما ورد في سفر الملوك من اسفار التوراة لانه هو حقيقة حبل لا غير والذي نقلوا التوراة الى لغات مختلفة لم يسموه الا باسم يدل على الحبل ، فهو باليونانية Kamilos وفي اللاتينية Funiculus وفي الارمية (حبلا) وفي الحبشية (حبل) الى غيرهما من اللغات .

ولهذا كان من اسمائه العربية في البلاد الضادية اللسان تدل كلها على مثل هذا المعنى . فمن اسمائه الاولى عند العرب (العصابة) ، قال في التاج (العصابة بالكسر) : ما عصب به (كالعصاب) بالكسر ايضا والعصب . قاله ابن منظور . وعصبه تعصيبا : شده واسم ما شد به العصابة . انتهى . وهو الاسم الشائع اليوم في شرق الاردن وانحاء فلسطين .

ومن اسمائه في تلك الربوع (المرير) . فراجعها في ما تقدم من كلامنا .

والمرير هذا يسمى في عمان (من ديار خليج فارس) خزاما . وقد تقدم الكلام عليه ايضا . هذا ما استطعنا أن نجمعه من الافادات لاثبات أن الكوفية والعقال من اقدم ملابس الراس عند العرب ، ويصعب على منكرهما أن يهدم هذه الادلة ، اللهم الا اذا كان سيء النية . لا يقنعه وجود الشمس في رابعة النهار .